وحرية التعبير النسبية التي يتمتع بها لبنان كان الجو المثالي الذي تستطيع فيه القيادات التقدمية ان تشحن طاقات الجماهير وتنمي وعيها وتحرك ارادتها في اتجاه التغيير . فلقاء العذاب مع الوعي به وباسبابه لا يترك سوى منفذ واحد ، قد يتأخر الوصول اليه ولكن لا بد منه .

ويجب الاعتراف ايضا بان المثقفين التقدميين استطاعوا ان ينفذوا في كثير من الاحيان من جدار الطائفية وان يكسبوا جزءا لا يستهان به من الرأي العام المحسوب على الطائفية ، الى جانبهم .

ثم كانت هناك القضية الوطنية . فالوطن العربي ، خاصة في الشرق ، يعيش دائما قضية وطنية واحدة ، وهي القضية الفلسطينية منذ اقامة الدولة اليهودية في فلسطين المحتلة . فالقضية الفلسطينية هي القضية المركزية في الحياة العربية منذ ١٩٤٨ اي منذ اكتمل الوعي العربي بالخطر الصهيوني ، لان الوعي به قبل ذلك اقتصر على الشعب الفلسطيني وجزء من الطلائع العربية الواعية . وكل المعارك التي خاضتها المنطقة كانت في سبيل فلسطين ، بشكل او باخر وبطريقة مباشرة او غير مباشرة ، سواء مقاومة الانظمة الفاسدة واسقاطها ، او طرد الاحتلال او محاربة الاحلاف كحلف بغداد الذي كان يتحدث عن خطر شيوعي موهوم لتفادي مجابهة الخطر الصهيوني الداهم ، او النضال في سبيل الوحدة .

ومنذ استقلال لبنان انعكست صيغة ١٩٤٣ او انعكس جانبها السلبي في المفهوم الطائفي للقضية الوطنية . فالواقع ان مواجهة الخطر الصهيوني لا تكتفي من لبنان بموقف ان لا يكون لبنان مقرا او ممرا للاستعمار وقد يكون هذا الموقف مقبولا او مفهوما سنة ١٩٤٣ ، ولكنه اصبح موقفا متخلفا بعد ١٩٤٨ . فلو غضضنا النظر عن روابط الامة الواحدة التي تربط الشعب المحيط بفلسطين المحتلة ، مهما كانت النظرة القومية ، فلا يمكن غض النظر عن الخطر المباشر الذي تشكله الدولة اليهودية على لبنان . فمنذ ١٩١٩ ، وفي مؤتمر فرساي طالب حاييم وايزمان ، ابو الصهيونية الحديثة ، بضم الجنوب اللبناني ومصادر المياه فيه الى حدود الوعد بالدولة الصهيونية . فكيف اذن ، اذا لم يكن من الممكن الى جانب الخطر الصهيوني ومطامعه في لبنان ، اسقاط الروابط القومية التي ترتبط لبنان بالكفاح العربي ضد الصهيونية .

وقد يقول البعض بان حماية جنوب لبنان هو اجدى بالضمانات الاجنبية ولكن هذه الحجة قد سقطت تماما في حرب ١٩٦٧ ، حين عجزت الضمانات الاميركية عن ان تحمي الضفة الغربية ورغم ان النظام الاردني هو من اخطر واهم حلقات الانظمة الموالية للسياسة الاميركية . ومن الخطأ اذا لم يكن من السفاهة والبلاهة الاعتقاد بأن الضمانات الاجنبية ، او اميركا ، يمكن ان تضع لبنان في موضع افضل من النظام الاردني . واذا كان الجنوب اللبناني لم يسقط للان فلأن الظروف التي تتيح حرية الحركة لاسرائيل في هذا الاتجاه لم تنضج بعد ، وحين تؤاتي الظروف فان اسرائيل لن تتوانى لحظة عن احتلال جنوب لبنان .

على اي حال ، ومهما اختلفت الاراء في جدية الخطر الصهيوني على لبنان فان عنصرا اساسيا في القضية لا يمكن المرور به ، وهو الاعتقاد العميق لجزء اساسي من السكان بان القضية الفلسطينية وبكل ما تعنيه من خطر على السيادة والارض اللبنانية هي قضية لبنانية . ولا يمكن الاستهانة بالمشاعر الجياشة لغالبية الرأي العام اللبناني التي تعتقد بان الدولة لم تقم بكل ما عليها من اعداد عسكري والتزام مبدئي بالقضية ، وان المواقف